أبو العلاء شاعر انساني

اسمحوا لي — قبل أن أدخل في الموضوع — أن أتوجه بالشكر الى المجمع العلمي العربي الموقر على تفضله بدعوتي ودعوة نقابة الصحفيين المصرية التى أولتني شرفا عظيما بندبي لتمثيلها في هذا المهرجان التاريخي . وكنت لما تلقيت دعوة المجمع الكريمة منذ شهور لا أرى أن الحال تسعف بتلبيتها ، ثم رأى مجلس النقابة أن ينيبني عنه ففاجأني مفاجأة سارة فله مني الشكر على ما أعان ويسر . ولعل مما يسركم أن أبلغكم أن رجال الصحافة المصرية مجتمعون اليوم . وفي هذه الساعة بناديهم بمصر وان كلمتي تتلى عليهم الآن لا لقيمتها بل على سبيل التأكيد لمشاركتهم لكم في الاحتفال بذكرى هذا الشاعر الجليل .

والشكر أولا وآخراً . لحكومة سورية الشقيقة على ما الطفتني به وخصتني من التسهيل والتذليل . وما نفعتني لا مسئولة ولا مكلفة . ولو لا حسن صنيعها لكان الارجح أن لا أدرك الاحتفال في حينه .

وأرى بعد ذلك واجباً أن أصحح خطأ غير مقصود . مرجعه الى آفة لا برء لي منها على ما يظهر . فقد كنت كتبت قبل حضوري الى الاستاذ الجليل محمد كرد علي بك رئيس المجمع الموقر أقول له أن عنوان موضوعي هو « أبو العلاء شاعر انساني » والواقع انى كنت الى ذلك الوقت حائرا لا أهتدي . ولا أدري أية ناحية من أبى العلاء يحسن بي أن أتناولها . وزاد حيرتي علمي أن معظم أعلام الادب قد وفدوا على دمشق ليقولوا في المعري . ويقيني انهم لم يتركوا لي بابا أدخل منه أو كوة صغيرة أنفلت منها . وكان الوقت قد ضاق . والمراجعة الواجبة طويلة . والمشاغل لا هينة و لا قليلة . والعنوان آخر ما أكتب . وهو على كل حال شيء لا أحسنه . ولقد أخرت كتابا لي في المطبعة سنة كاملة حتى وفقني الله فاهتديت الى اسم له . وأصارحكم اني ماتسنى لي أن أكتب كلمتي هذه الا قبل مقدمي بيوم

واحد فأنا لهذا أخشى أن يكون عنوان كلتي مضللا أو اسماً على غير مسمى ولهذا وجب التنبية وابراء الذمة ـ أما الموضوع الذي سأتلوه فلا أدري ماذا أدعوه وكل ماأدريه اني أحوم فيه وألوب حول أبي العلاء .

يرجع عهدي بأبي العلاء الى أيام الطلب والتحصيل ـ أي الى نحو خمسة وثلاثين عاماً أو تزيد ـ ولعل الاصح أن أقول الى بداية أيام الطلب فما اعرفها تنتهي أو تنتهي الحياة نفسها . وما زالت الدنيا مدرسة لايتخرج فيها المرء ولكن يخرج منها . وما فتئت أرجع اليه حيناً بعد حين . حتى تقضى من العمر فيه شطراه وأطيبها. وأطولها فيما أخشى . فما يتكافأ شطران من عمر تكافؤ شطرى بيت منظوم . ولا يلتزم ربنا معنا مايلتزم شعراؤنا من الوزن والقافية . فلا تنفك أوزاننا تتغير وتتنوع وتتفاوت . ولولا ذلك لضقنا بانفسنا وسئمنا أن تجري حياتنا على استواء . وعسى أن تكون هذه حجة لمن يضجره استواء البحور العربية .

وأذكر أننا كنا في الفرقة النهائية للتعليم الثانوي . وكنا ذات يوم نعرب أبياتاً للمعري في الفخر ـ ماأقل ماكان يفخر ـ فدخل علينا المرحوم عاطف بركات باشا ـ وكان يومئذ مفتشاً للغة العربية . وكانت فيه صراحة تلتبس بالفظاظة والجفوة ـ وقال : « اسمعوا . هذا الشعر يصلح للإعراب ككل شعر آخر . ولكنه من أردإ ماقال المعري وسأحدثكم عنه حديثاً وجيزاً أوجهكم به اليه . فانه شاعر جليل القدر . مني في حداثته بذهاب بصره فحيل بينه وبين السعي والتصرف وعكف على الدرس لايشغله عنه شاغل وتوفر على ماكان في زمانه من علوم وآداب وفنون . حتى الرياضيات والموسيقى والفلك . فلم يكد يفوته شيء . ولزم بيته وسمى نفسه رهين المحبسين . محبس الدار التي لايفارقها . والعمى الذي لايفارقه. وراح يتفكر ويتدبر . ويملي مايدور في خاطره ويضطرب به فؤاده . فله شأن غير شأن من سبقوه وتلوه من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر ويتخذونه أداة للرزق . وقد جارى غيره قليلاً في البداية ثم كف وأقصر . وستحتاجون وأنتم تقرأونه الى المعجم فان الشيخ كان يتكلف الإغراب . على أن المعجم لاغنى عنه لقارىء الأدب العربي وستجدون أبا العلاء فيما عدا ذلك أصفى من الجدول الرقراق »

فكان أن اقتنيت سقط الزند واللزوميات وعكفت عليها . وما أظن به الا أنه قوى في نفسي ميلي في أيام الشباب الى التشاؤم . وأعداني بخواطره السود .

ولكنه علمني أن أنظر بعيني . وأفكر بعقلي . وصدني عن التقليد والمحاكاة . وحبب الي الخير والرحمة والانصاف . وبغض الي الظلم والبغي وأن كان لم يهدني . وله العذر فما كان اهتدى حتى يهتدي سواه .

ولم يتغير رأيي فيه بعد أن زدت خبرة بالحياة وتجربة للدنيا . واطلاعا على الأدب . فما زال عندي في المحل الأول بين الشعراء . وان كان لايعجبني يأسه من الخير والصلاح . وعزوفه عن الدنيا . ونكوصه عن الضرب في زحمة الحياة . ولكني أفهم دواعي ذلك وأعذره . ولا شك في أن الزهد والاعتزال ينافيان الطباع حتى في الحيوان . ولكنه لم يكن زاهداً وانما كان يتزهد . ويشيح بوجهه عامداً . ويروض نفسه على الحرمان . أو كما يقول الميمني فيه « روض نفسه وقنعها على الكفاف فعاد شماسها انقياداً . وألقت اليه مقادا . » ولا بد أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا» وليس هذا بصحيح كل الصحة أعني أن نفسه لم تلق اليه مقاداً ولم يعد شماسها انقياداً . كما سنرى .

وقد عرف عنه أنه في صباه كان يلهو ويعبث . ويلعب الشطرنج والنرد . وهو القائل بعد أن تقضى الشباب :

ألم ترني حميت بنات صدري فما زوجتهن وقد عنسنه
ولا أبرزتهن الى أنيس اذا نور الوحوش به أنسنه
وقال الفارسون حليف زهد واخطأت الظنون بما فرسنه
ورضت صعاب آمالي فكانت خيولاً في مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات الا لان خيارها عني خنسنه
ولم أر في جلاس الناس خيراً فمن لي بالنوافر ان كنسنه

فهو كما ترون يخطيء أهل الفراسة الذين يزعمونه حليف زهده . ويقول إنه راض صعاب آماله فظلت كالفرس الشموس الذي يمنع الراكب ظهره . وما أعرض عن اللذات الا لأن خيارها تفوته . وهو يشتهي أن يأنس بالناس ولكنهم كالظباء النافرة التي تدخل كناسها . وكان واسع المطامع ففاته أن يكون بحيث يحب فنفر وآثر العزلة .

وقد صاح مرة :

أيأتي نبي يجعل الخمر طلقة فتحمل ثقلاً من همومي وأحزاني ؟

ثم آثر الاحتشام والتجمل وكره لنفسه أن يسكر ويخف عقله فقال :

وهيهات لو حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم كفة ميزاني

وهو كثير التحديث لنفسه بالخمر . يأسف مرة على حرمانها فيقول :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهاني كيف اطمأنت بي الحال

وتارة يكرر بغير داع أنها لو كانت حلالا لما شربها . فيقول :

لو كانت الخمر حلا ما سمحت بها لنفسي الدهر . لا سراً ولا علنا

فليغفر الله . كم تطغى مآربنا وربنا قد أحل الطيبات لنا

وهو في رسالة الغفران يصف مجالس الخمر والمنادمة عليها ويقول انما لذة الشرب فيما يعرض لهم من السكر . ولو لا ذلك لكان غيرها أعذب .

وهو القائل أيضاً :

ولولا أنها باللب تودي لكنت أخا الندامة والنديم

وقال في ذمها والتحذير منها :

البابلية باب كل بلية فتوقين هجوم ذاك البـاب

جرّت ملاحاة الصديق وهجره وأذى النديم وفرقة الأحباب

أم الحباب . وان أميت لهيبها بمزاجها وافت كأم حباب

هتكت حجاب المحصنات وجشمت مهن العبيد تهضم الأرباب

وتوهم الشيب المدالف أنهم لبسوا على كبر برود شباب

واذا تأملت الحوادث الفيت صهب الدنان أعادى الألباب

وقال أيضاً في هذا المعنى :

هي الراح . أهلا لطول الهجاء وان حصها معشر بالمدح

فلا تعجبنك عروس المدام ولا يطربنك ملن صدح

ومن يفتقد لبه ساعة فقد بات فيها بخطب فدح

قبيح بمن عدّ بعض البحار تغريقه نفسه في قدح

وقال في الدنيا التي عالج الانصراف عنها

أيها الدنيا لحاك الـ ـله من ربة دل

ما تسلي خلدي عنـ ـك وان ظن التسلي

وقال أيضاً :

طال صبري فقيل أكثم شبعا ن وإني لمنطو طيان

أي جائع متعمد للجوع .

وقال يصف مجاهدته نفسه

مهجتي ضد يحاربني أنا مني كيف احترس ؟

وقال :

حبستك أقدار ذوتك عن المنى فمضى الصحاب وأنت ثاو جالس

وقال :

وما يترك الانسان دنياه راضيا بعز ولكن مستضاماً على قسر

وقال :

والعز في الثروة . والعيش في الا حبرة . والحرفة في المحبرة

وقال :

تنازعني الى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً . ولا هي

وقال :

أريد ليان العيش في دار شقوة وتأبى الليالي غير بخل وليان
ويعجبني شيئان . خفض وصحة ولكن ريب الدهر غير شياني
وما جبل الريان عندي بطائل ولا أنا من حود الحسان بريان

وفي رسالة الغفران . يجعل ابن القارح يلتقي باثنين من الحور من الضرب الذي نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . فيقبل على كل واحدة منها يترشف رضابها فيهيجه ذلك الى ما به ويصيح « ان امرأ القيس لمسكين . مسكين . تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى وصوب القطر
يعل به برد أنيابها اذا غرد الطائر المستحر

ولا يزال المعري في هذه الرسالة يلتفت لى مواضع معينة في جسد المرأة ولا يخلو هذا من دلالة .

وفي « الفصول والغايات » تقرأ له كثيراً من أمثال هذه الكلمات .

« يا أرض ، لا قرض عندك ولا فرض . أودعت المال فرددته سالماً . والخليل

فأكلته راغماً . ليتك أكلت المال ورددت الخليل . انما أنا كرجل يلي بالصدى (العطش) لا يجد ورداً ولا مورداً . فهوظمآن أبداً »

أي لا يجد نصيبه من الماء ولا موضعاً يرده فيطفيء ظمأه .

وان الله خلقني لأمر حاولت سواه فألفيت المبهم بغير انفراج . وفطام ابن العامين أيسر من فطام ابن الأعوام . وأعيا تأديب الهرم على الأدباء . وقد صرفت نفسي في الشبيبة فألفيتها صاحبة جماح . فالآن وقد اسمألت الظلال (قصرت) ان تركتها أسفت . وان زجرتها فلا انزجار . كأن كلامي سفير الريح (ماتكنسه من الورق) مالها اليه التفات . وقد سئمت الحياة . وأخاف أن أنقل فأقدم على ماحزن وساء . وأنا أغفلت الحزم ملت عن الجدد ومشيت في الخبار . وقد خلصت من الحبالة فكيف عدت . وعلى علم وضعت القدم في النار . أحلف يانفس . ولك الحلف . لقد ضيعت آخرتك ودنياك . ماوفق رجل امن الله وخشي الناس . اسعى للنفس فيما تكره كأني لها غاشّ . أنا وهي شيء لاينماز . نتراد الملامة كأننا اثنان . تلك محارة في حور . ان جنت عليّ . أو جنيت كيف يقع القصاص ؟ أفنيت الشبيبة سوى سواد قد آن له أن يبدل ببياض » . . الخ

ولا داعي للاكثار من الشواهد . فان أبا العلاء انسان . وليس بانسان من لايشتهي الحياة الرضية . والمتعة المرضية . والسلامة من اليأساء والضراء وأن أبا العلاء لانسان عريق في الأنسانية . يحب الحياة كما نحبها جميعاً . ويفزعه المصير الذى لامهدي عنه ولا مهرب منه . تأمل قوله :

وكلكم يبدي لدنياه بغضه على أنه يخفي بها كمد الصب

وقوله :

تبغي الثراء فتعطاه وتحرمه وكل قلب على حب الغنى جبلا
لو أن عشقك للدنيا له شبح ابديته لملأت السهل والجبلا

وقوله :

اشربت حبك لاينفيه عن حسدي سوى ثرى لدماء الانس شرّاب

وقوله :

وصدقت هذا العيش في حي له واغترني بخداعه وكذابه

وقوله :

شقينا بدنيانا على طول ودنا فدونك مارسها حياتك راشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها

وقوله في « الفصول والغايات » ايها الدنيا البالية . ماأحسن ما حلتك الحالية. اين امك الخالية . ان نوبك لمتوالية . والنفس عنك غير سالية .

« كسيت الحداثة فأبليتها . واعطيت الصحة فتمليتها . ماخلوت من الجرائم ولا خليتها . قلتني دنياي فما قليتها . اكتلأتها فما اكتليتها (راقبتها فما اصبت شيئاً)

« اسب نفسي وتسبني . واريد الخير لايحبني . احب الدنيا كأنها تحبني . والحرص يوضعني ويخبني . والعزيزة عن الرشد تذبني »

« ويحي كل الويح . أحب الدنيا وآلتها ليست فيّ . وقد يئست من بلوغها واليأس مريح . فالام التشوف الى الضلال »

* * *

ومن فرط حبه للحياة وتعلقه بها وحرصه عليها وأسفه على مافاته فيها وحرمه . كان جزعه من الموت . واستهواله له . وطول تفكيره فيه وفيما يليه . وحيرته بين الجبر والاختيار ، وشكه في كل شيء الا أن الموت حق ومصير محتوم :

اذا ما تباشر أهل الغلام به فالتباشر معنى هلك
ألم تريا أن سلك الزمان أفنى السليك وأفنى السلك؟

يمر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الأقوام حولي
كأني بالأولى حفروا لجاري وقد أخذوا المحافر وانتحوا لي

سيسأل ناس ما قريش ومكة كما قال ناس ماجديس وما طسم
أرى الوقت يفني أنفسا بفنائه فيمحو . فمايبقى الحديث ولا الرسم

تبكّي على الميت الحديث لأنه حديث وينسى ميتك المتقادم

لو كان ينطق ميت لسألته ماذا أحس . وما رأى . لما قدم

اذا الحي ألبس أكفانه فقد فني اللبس واللابس
ويبلى الحيا فلا ضاحك اذا سر دهر . ولا عابس
ويحبس في جدث ضيق وليس بمطلقه الحابس

فما هو في سلف سائر ولا هو في حندس قابس
يجاور قوما أجادوا العظات وما فيهم أحد نابس

أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

ومدّ وقتي مثل القصر . غايته وفي التراب تساوي الدر والبرد

فني الواتر والموتور . وعند الله علم الذاهبين

ولا آخر لقوله ـ شعراً ونثراً ـ في الموت والفناء . حتى الكواكب لامنجاة لها من هذا المصير .

يجوز أن تطفأ الشمس التي وقدت من عهد عاد وأذكى نارها الملك
فان خبت في طوال الدهر جمرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك

زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الدهر مطف . وان علت في اتقاد
والثريا رهينة بافتراق الشمل حتى تعد في الأفراد

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى فان كان حقاً . فالنجاسة كالطهر

وما مصير من يفكر على هذا النحو ؟ مصيره ولا ريب الى اليأس . والى أن يستوي عنده الجهل والعلم . والهدى والضلال . وإلى حيرة مضنية لامخرج منها . ولهذا تراه لاينفك ينفي ويثبت . ويقول بالرأي ونقيضه .

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
ومن يظفر بأمر يبتغيه فأقضية المهيمن وفقته

ماباختياري ميلادي ولا هرمي ولاحياتي. فهل لي بعد تخيير ؟

تتخيرين الأمر كي تحظي به هيهات ليس على الزمان تخير

لو ينطق السيف نادى ليس لي عمل اذا قضى ملك الأفلاك أنضاني
وان كهمت فأمر الله اكهمني وان مضيت فأمر الله أمضاني

وهو مغلوب على أمره في كل شيء .

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبعي اليها بالغريزة جاذب

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم . وضاعت حكمة الحكماء

وهل يأبق الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء؟

ولكنه يعود فيقول بالاختيار :

تقلدن المآثم باختيار أوانس بالفريد مقلدات

تخير . فاما وجدة مثل ميتة واما جليس في الحياة منافق

فما أذنب الدهر الذي أنت لائم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا

ثم يتردد ويضطرب ويحتار فيقول :

تخالفت الأشياع في عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها

وقيل نفوس الناس تطبع فعلها وقال أناس بل تبين جبرها

ارى شواهد جبر لا احققه كأن كلا الى ما ساء مجرور

قالت معاشر . كل عاجز خرع ما للخلائق . لا بطء ولا سرع

مدبرون بلا عتب اذا خطئوا على المسيء . ولا حمد اذا برعوا

وقد وجدت لهذا القول في زمني شواهداً ونهاني دونه الورع

وحار في الثواب والعقاب . ورأى ان من الظلم عقاب المجبر . ولم يطمئن الى الجبر . فطمع في الغفران . وآمن بالعقل وكفر به

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنا ولكن فيها ضعف اسناد

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادي

والعقل غرس له بالصدق اثمار

ثم يرجع فيقول :

هي الأفهام قد صدئت وكلت ولم يظفر لها أحد بصقل

وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول أعمالها

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

سالتموني فأعيتني اجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا

انما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته

أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقي

أنا اعمى فكيف اهدى الى المنـ ـهج والناس كلهم عميان

فهم الناس كالجهول وما يظـ ـفر الا بالحسرة العلماء

* * *

وحسبنا هذا القدر من الشواهد

وقد قيل ان علة العلل هي عماه . وان هذه المحنة هي التي حملته على التزهد وايثار العزلة . ورياضة النفس على الكفاف . وان آفته هذه هي مفتاح شخصيته . فلا سبيل الى فهم المعري على حقيقته الا اذا رددنا كل عمل او قول له الى هذه المصيبة التي اصابته في طفولته لغير ذنب جناه .

وغير مردود ولا منكور ان ذهاب البصر محنة . ولا سبيل الى الشك في ان المكفوف لايسعه الا ان يشعر بما حاق به من المكروه . وما حرم من المزية . والا ان يألم ويأسف ويتحسر ويتلهف وان اظهر الجلد وابدى التشدد . ولا يمكن ان تخلو خسارة هذه الجارحة النفيسة من أثر عميق في نفس المرء وتفكيره واتجاه عقله ونوع احساسه بالحياة والناس .

كل هذا مسلم لاخلاف عليه . فما يستوي ان تكون او لاتكون للأنسان هذه الجارحة والا كان خلقها عبثا . وزايداً لاداعي له . ولكني لارى راي القائلين برد كل شيء الى فقدانها . ولا انها هي مفتاح شخصية المعري . فليس من الحتم ان يحدث ذهاب البصر هذا الأثر . وقد عمي بشار جنينا ولم ير ضوء النهار وتحسر وتألم . ونقم وسخط . ولكنه لا تزهد ولا اعتزل . بل نزل الى المعترك . وخاض الغمار . وضرب في الزحمة وكان حيواناً كبيراً . وروى بيرك الأديب الانجليزي المشهور في كتابه « الجليل والجميل » أنه يعرف عالماً أعمى كان أستاذاً

لعلم الضوء في الجامعة . وهو قد ولد مكفوفاً . وقرأت منذ شهور كتاباً اسمه « العالم تحت أنامله » لكاتب امريكي حديث اسمه « كارستن اونستاد » ذهب بصره وهو طالب في مدرسة عالية . أي بعد أن أمتع بنعمة البصر نحو عشرين عاماً . فالخسارة افدح . والحرمان أوجع . وقد ترجم في هذا الكتاب لحياته . ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة . وكيف غالبها فغلبها . وهو لا يعتمد الا على العصا ولا يحتاج الى من يأخذ بيده ويقوده ولا يرضيه الا أن يعامله الناس كأن ليس بينه وبينهم فرق . فلا هو أعمى ولا هم بصراء دونه . وكيف كان يشارك الطلبة في العابهم ومغامراتهم . حتى الزحلقة على الثلج في الجبال .

وعندي أن ذهاب البصر لا يورث صاحبه ما عزوه في المعري اليه . الا اذا اجتمع أمران على الخصوص : حس مرهف دقيق في المكفوف . ومجتمع لا يزال يشعره انه مكفوف كأن يبدي العطف عليه . أو يعيره . أو يتعجب لما يكون منه مما يعد مستعصياً او مستكثراً على مثله . واحسب ان عامل المجتمع اقوى الاثنين فاذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعي . وعاملوه كأنه مثلهم بلا فرق . ونزهوه عن العطف والتعيير والتعجب . فان أثر العمى في نفسه على الرغم من دقة الشعور به ، يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والتغلب على قيده . وتقيه بسلوكها نحوه من التهويل بمصابه على نفسه .

ومن المحقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذي حمل المعري على اعتزال الناس ورفض الحياة . وايثار الوحدة والعزوبة . وكراهة أكل اللحم وذبح الحيوان والطير . ولو شاء المعري لتولى القضاء في المعرة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله . وعمه أبو بكر محمد . وجده سليمان . وابن أخيه أبو اليسر ولو شاء لما حرم نفسه طيبات ما أحل الله . بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بدلائهم ويسيم سرح اللهو مثلهم لفعل . فما حال العمى أو الصمم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهي من ذلك . فاذا قيل أنه كان حساساً جداً وانه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف الحلم أو على حال تزري به . وان شعوره بكرامته كان يأبى له أن يطلب فيمنع ويشتهي فيحرم . قلنا أن هذا ليس من العمى . بل من دقة احساسه المرهف وفرط شعوره بنفسه .

ودع هذا واسأل ما ذا حرمه العمى ؟ انه شاعر أديب وعالم متفلسف . وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم وحدة الذكاء . وسعة الاحاطة باللغة . والحذق بالنحو . وجودة الشعر . والالمام بكل علم معروف في عصره . وكان تلاميذه يعدون بالمئين . ويزحمون داره . ولما مات أنشد على قبره المراثي أربعة وثمانون شاعراً . فهو قد فاز في حياته بالحظ الأجزل من الشهرة والتوقير . ولا يزال الى يومنا هذا في المحل الأول والأرفع بين شعراء العربية . أما فيما عدا ذلك مما هو من الحياة الخاصة الشخصية . فما حرم شيئاً أو كانت الآلة تعوزه فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وآثر لنفسه العزوف وأبى عليها كل متعة . فالأمر مرجعه الى ارادته لا الى عماه .

واذا قلنا ارادته فقد قلنا ما ينزع به اليه مزاجه السوداوي الخاص وما بني عليه من الطباع . وهذا عندي هو مفتاح شخصيته والذي أرد اليه ما كان من سيرته . وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداده الخاص فقد نشأ في بيت علم وفضل وتقوى . وكانت لأسرته مكانة عالية ومنزلة ملحوظة في بلدته الصغيرة . وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته في هذا البلد أنه وهو عائد من بغداد بعث الى أهل المعرة بكتاب ينبئهم فيه أنه اعتزم أن يلزم داره ويعتزل الناس . كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه أو « منشوره » يسبقه اليها ببلاغ منه . وكان هو إلى ذلك عالماً ضليعاً وأديباً رفيعاً . فاجتمعت له كرامتان : كرامة علمه وأدبه وفضله . وكرامة بيته وآله . وخلق حساساً جداً حتى لكأنما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقيها جلد . فهي أبداً مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة . ولهذا كان يخجل أن يرى وهو يأكل مخافة أن يرى منه ما يعاب . ومثله يحرص على اجتناب ما يعرضه للمهانة أو الزراية أو السخرية . ومن هنا لجاجته في تنقص نفسه وقوله إنه كلب لئيم وإنه جاهل وناقص وإنه أعمى ضال كأنما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق الناس إلى ذمه . ولا يدع لهم ما يقولون فيه أو يعيبونه به . ومثله ينزع الى العدل والانصاف . لأن الانصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يفطن فطنته الى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها احساسه . حتى لقد عرّف الدين بأنه

إنصاف الناس . ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه . وان كانت رحمته مفرطة -حتى ليقشعر بدنه حين يقدمون له فروجاً أوصى له به الطبيب في مرضه . ويقول : « استضعفوك فوصفوك . فهلا وصفوا شبل الأسد ؟ » وقد ثقلت عليه محنة العمى وشقت جداً لا نها ظلم حاق به بغير ذنب . فظل ثائراً على هذا الظلم كثورته على كل مظاهره الأخرى في الحياة . ولم تكن ملازمته داره واقتصاره على أكل البقول ونفوره من اللحم . إلا ضرباً من التحامل على النفس وتعذيبها لا يستغرب . فان تعذيب النفس نوع من إثبات القوة فكأنه لما أنس من نفسه العجز عن أن يكون ذا بأس وصولة بين الناس تحول الى نفسه وحمل عليها وعالج رياضتها لينعم بالشعور بالقوة والاقتدار . وكل امرئ ينزع بطبعه الى تعويض النقص الذي يعرفه أو يحسه ولو احساساً غامضاً . وتلك حقيقة لا تحتاج إلى بيان . وأحسب أن مما يجري هذا المجرى شدة تكلفه في اللزوميات وإلزامه نفسه فيها ما لم يلزم أحداً ، وإكثاره من الغريب فيها وفي نثره . وتحريه الوحشي وغير المأنوس من الألفاظ . حتى كتاب « الفصول والغايات » جعله فصولا غاياته أحرف مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة . وذلك كله لاثبات القدرة والرسوخ في العلم والاستبحار فيه . بل التفوق والتميز .

وهنا موضع سؤال : لماذا احب المعري أبا الطيب المتنبي كل هذا الحب ؟ وأعجب به وأكبره الى هذا الحد ؟ حتى تعرض للأذى من أجله ؟ وألف فيه كتاباً سماه « معجز أحمد ؟ » لقد كان يتعصب له تعصباً عجيباً وليس هو بالذي يخفى عليه أن هناك شعراء آخرين لايقلون عنه شأناً . وان معاني المتنبي ليست كلها مما ابتكر وان كثيراً منها يوجد في أشعار غيره . ولقد ألف في أبي تمام كتاباً سماه « ذكرى حبيب » فما هو سر هذا التعصب المفرط ؟

عندي أن السر هو شخصية المتنبي لاشاعريته . فقد كان المتنبي يمثل كل ماينقص المعري . أو مايحس المعري أنه ينقصه : الجرأة . والأقدام . والثقة بالنفس . والأطمئنان الى صواب مايرى . والجزم في الأمور والفحولة التي تخرج المعنى مخرج المثل السائر وتجعل منه عملة . وعلى الخصوص اليقين الجازم . والثقة بالنفس . وانتفاء الحيرة والاقتناع بأن فهمه للناس وللحياة

صحيح لايرتقي اليه الشك . وكل هذا ينقص المعري . فهو أبداً مضطرب لايستقر . وحائر لايهتدي . لايطمئن الى رأي . ولا يثق بصواب . ولا يرضى عن نفسه . ولا يحول عينيه عما يدركه من قصورها وعيوبها . يحس أن في وسعه أن يجتريء ويلقي بنفسه في عباب الحياة ويفرق تياره الى حيث يتطلع ويرجو أو يراه من حقه .

وأحسب أن كل من قعد يفكر ويتدبر على نحو مايفعل المعري . لابد أن يضطرب اضطرابه . ويضل ضلاله . ويقع في مثل حيرته . فان هذه أمور أشكال لاسبيل الى الاهتداء فيها الى مايقنع العقل . وليس المعري يبدع في هذا فان له لأندادا كثرا في الشرق والغرب .

ولقد كنت منذ ايام أراجع رواية هملت لشكسبير الشاعر الانجليزي. فاذا بي أقرأ لهملت وهو واقف مع حفارى القبور . وفي يده جمجمة

« أتظن أن الاسكندر كان هذا منظره في الأرض ؟ »

فيقول رفيقه هوراشيو « تماماً »

فيقول هملت « وكانت له هذه الرائحة ؟ أف . »

هوراشيو « كذلك ياسيدي »

هملت « إلى أي درك نصير ياهوراشيو . . لماذا لايتعقب الخيال رفات الاسكندر النبيل حتى يجده يسد ثقب برميل ؟ ... مثلاً : مات الاسكندر. دفن الاسكندر . عاد الاسكندر ترابا . والتراب من الأرض . ومن الأرض نصنع الصلصال . ومن هذا الصلصال الذي تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا منه مايسد برميل بيرة ؟ »

فأذكرني هذا قول أبي العلاء :

إذا غدوت ببطن الأرض مضطجعا فثم أفقد أوصابي وأمراضي
تيمموا بترابي علَّ فعلكم بعد الهمود يوافيني بأغراضي
وان جعلت بحكم الله في خزف يقضي الطهور فاني شاكر راضي

والبيت الأخير هو الشاهد

وتأمل صيحة هملت باوفيليا حبيبته

« إلى الدير .. لماذا تريدين أن تكوني أما لآثمين ؟ اني أنا نفسي رجل شريف إلى حد ما . ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسي بأشياء يبدو معها انه كان خيراً لو لم تلدني أمي . وأنا رجل متكبر جداً وبي من المغريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن . ماذا يصنع أمثالي وهم يزحفون بين الارض والسماء ؟ اننا جميعاً أوغاد أشرار . فلا تصدقي أحداً منا » .

ثم يقول لها « إذا كان لابد لك من الزواج فتزوجي مغفلا . فان العقلاء يعرفون كيف تخلينهم وحوشاً شنيعة . إلى الدير . اذهبي بسرعة . »

وأما أكثر ما أبدا المعري وأعاد في هذه المعاني . وما أشبه رأى هملت في المرأة برأي شاعرنا الذي يعد النساء فوارس فتنة وأعلام غي .

وتأمل مناجاة هملت لنفسه « تكون أو لاتكون ؟ هذه هي المسألة . » وهي مشهورة . يقول فيها أن الموت رقدة تنتهي بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه كما يقول المعري « انما الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد » ولكن الموت قد تتخلله الأحلام . فأي أحلام نراها ياتري إذا سلبنا الحياة . كما يتساءل المعري « كيف لي بمخبر . يعتام نفائس ما أحذر عليه . يعلمني بعد الموت كيف أكون ؟ » وكما يقول :

وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتان برء للنفوس واعلال
إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور في التراب وأحوال

وكما يسأل

« سبحانك مؤبد الآباد . هل للمنية نسب الى الرقاد ؟ »

ولا يزال هملت يلهج بمحنة الحياة . وسهام القضاء . وسياط الزمن وظلم الظالمين . وصلف المتكبر . وبطء تحقيق العدل . ووقاحة ذوي الأمر وبغيهم واحناء الظهر تحت أثقال الحياة . واحتمال ذلك الشقاء فزعا مما بعد الحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر . وهذا خوف يفل العزم ويغري المرء بالرضى بآلام يعرفها واتقاء مايجهل — وذلك كله ما كان يلهج به المعري .

ويتكرر مثل هذه الآراء في الناس والحياة ومصائر الخلق في روايات أخرى مثل تيمون الأثيني وماكبث والملك لير وغيرها .

وندع شكسبير وما يجريه على السنة أبطاله . وننتقل الى جوتيه الشاعر الألماني وروايته فوست على الخصوص . وهي كما وصفها الشاعر « جولة بين الأرض والسماء » وفوست رمز للأنسان الذي ينشد المعرفة ويبغي أن يحيط علماً بسر الحياة وقد وجد أن المعرفة المستفادة من بطون الكتب التي كان يعكف عليها لاتفيده يقيناً ولا تكشف له عن سر ولاتبيحه مجهولاً أو مغيباً . وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه . وعاهده أن يسلمه روحه اذا وسع إبليس أن يفيده الدعة والاطمئنان واليقين فبدآ معا رحلة طويلة لاداعي لوصف مراحلها فان القصة مغروفة . وقد ذاق في رحلته مرارة الندم وضاق به الفضاء الرحيب فالتمس ماوراء ذلك لعل الخيال يغني حيث لم تغن الحقيقة . وقد أعياه على الرغم من مقدرة الخيال أن ينحي الأستار المسدلة . ولم يجده رفع طرفه الى السماء ومحاولته أن يطوف في الأبد ويجوبه . ولم يقنعه أن يتقبل الحياة كما تجيء وان كانت لا ترضيه . وأشقاه عقله الذي طغى على نفسه ولم يستفد الا الحيرة اللازبة وادراكه مبلغ جهله . ولم يصل الى شيء من ثالوث افلاطون — ثالوث الحق والجمال والخير — واستعان بالشيطان على ضعفه البشري فآب بالندامة والخسار .

وليست هي إلا قصة أبي العلاء في حيرته ونشدانه الحقيقة واليقين في كل ما يستجليه ويفكر فيه . بل قصة كل مفكر من بني الانسان في هذا العالم .

وقد ترجمت منذ ربع قرن وزيادة قصة روسية اسمها « سانين » وقد سميتها ابن الطبيعة . وهي لها ترب شيق . ومن أشخاصها من يدعى يورى يشهد جنازة منتحر فيستهول أنه لم يعد موجوداً . وانه كان شيئاً فأصبح لا شيء . ذهب كالتراب المكنوس ولم تبق منه إلا القبعة على النعش . ويفتح الانجيل فيقرأ فيه أن من يهبط الى الأرض لا يصعد أبداً فيقول :

« ما أصدق هذا وأحكمه . حلم فظيع . هذا أنا أعيش ويلج بي الظمأ إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعني حتى أن أحتج عليه » .

ويناجي القوة الخفية فيقول :

« ماذا جنى الانسان عليك حتى تسخري منه هذا السخر ؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن عينه ؟ لماذا تجعلينني إذا آمنت بك لا أؤمن بإيماني ؟ (كأبي العلاء تماماً) وإذا أجبتني فكيف أعرف أأنت المجيبة أم نفسي ؟ وإذا كنت على حق في رغبتي في الحياة وطلبي لها فلماذا تسلبيني هذا الحق الذي منحتني إياه ؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا نحملها من أجل حبنا لك . ولكنا لانعرف أيهما أعظم قيمة : الشجرة أم الانسان . ان الشجرة دائمة الأمل . إذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة . أما الانسان فيموت ويزول يرقد فلا ينهض مرة أخرى . ولو أني كنت على يقين من اني سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين . لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام . »

وهذه معان تقرؤها كلها في المعري نثراً وشعرا فقد مزق قلبه بها طول حياته .

ومما يستحق الذكر أن بطل هذه الرواية « سانين » يبدي رأياً في يورى هذا الذي يعذب نفسه بالتساؤل الذي لايجدى . فكأنه يبديه في المعري وذلك حيث يقول :

« ان الانسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسخط ولكن مرجع السخط الى نفسه . فهو اما لا يستطيع أو لا يجرؤ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون . وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق في الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلا متجاوبا لا يزعجه الا دنو الموت الرهيب . ولكنا نحن نقضي على هذا التلاؤم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية . وصرنا نحس العار والخجل منها ونخفيها في صور وضيعة والضعاف منا لا يفطنون لهذا بل يقضون حياتهم في الأغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فأولئك الذين تقعد بهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذاً . وان الجسم ينشد السرور واللذة . وانه يتعذب

من جراء عجزه وقصوره . فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم . وشك مستمر يتعلقون بكل ما يقدرون أن يعينهم ويفضي بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد . ولا يزالون كذلك حتى يعودوا وهم يخافون أن يعيشوا ويحسوا » .

هذه حال المعري وصفها أديب روسي على لسان شخص متخيل أصدق وصف . أراد أن يحلق فوق الحياة فعجز . لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه إنسان . وتهيب الحياة ففر من ميدانها . وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد فانتقمت منه وثأرت لنفسها القوى التي حبسها وسد عليها كل فج . فتعذب وراح يتساءل لمَ ولمادا ؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل . ويحاول أن ينفذ ببصيرته من أستار غيب الله المسدلة وهي كثيفة فما اهتدى الى شيء يستريح اليه العقل وتطمئن به النفس . وصار كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن يعيش ويحس .. لأنه يتألم . ولأنه يجهل المصير .

* * *

وبعد فان مجال الكلام ذو سعة . ولكني لست الوحيد الذي قال أو يقول في ابي العلاء . وليس من حقي ولا في مقدوري أن أحاول الاحاطة بكل جانب وأن ألم بكل ناحية . فحسبي ما قلت على القصور فيه والعجز . واني لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم . ومعتذر اليكم من التقصير . والسلام عليكم .

ابراهيم عبد القادر المازني